المقدمات

هذا التهذيب

كتاب «الغياثي» مدونة فقهية عالية المستوى، غنية بالمنطق الأصولي الرصين، والحجاج، والجدل الحَسَن، وقد أجاد الجويني خلال ذلك عرض مدارك الاجتهاد التي تستند إليها الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية، وأبدى مقدرة، وأبان عن فهم مرن وعقل مستوعب للأبعاد الحضارية الإيجابية أو التطورات الاجتماعية السلبية التي طرأت على الأمة بعد انقراض الأجيال الفاضلة.

وحين تدوبني لكتابي في «أصول الإفتاء والاجتهاد» أغراني الإبداع الجويني المتكرر على أن أستعين به، وأطلب نجدته في مواضع كثيرة مشكلة، حتى اتضح لي بعد محاولاتي الاجتهادية أن مذهب الجويني السياسيَّ والدَّعَويَّ الذي أورده في «الغياثي» - هو أقرب مذاهب الفقهاء إلى الفكر الإسلامي المعاصر، وفقه الدعوة التجريبي الذي انتهت إليه معاناة الدعاة اليوم، بل هناك توافق وتطابق كثير، رغم آراء غريبة على الحس الدعوي والسياسي المعاصر - جنح إليها في غفلة من وعيه الفهقي، مما ألزمني أن أستدرك عليه عبر بعض الحواشي، كمثل قوله في انعقاد البيعة بواحدٍ: «إذا وجد المؤهل للإمامة»؛ فهذه هفوات لم يبرأ من مثلها فقيه، ولا تثلم مكانة هذه المدونة الرفيعة، أو تعيب صوابه الكثير، ولقد كان جريئًا حقًّا في قضية الإمامة، وجهر بتغيير الضعفاء، وحسبه هذا الإبداع.

ولما أعلمه من أن أكثر الدعاة في غفلة عن هذا الكتاب الثمين، وما أعتقده من أن استيعابهم للمنطق السياسي الشرعي الجويني ينقلهم إلى مزيد وعي وبصيرة وفقه تخطيطي - أحببت لهم أن يتداولوه، ويحتفوا به، ويتدارسوه.

لكني وجدت في متن الكتاب إطالة، ضاعفها المحقق بحواشيه ومقابلاته بين مخطوطات الكتاب، ثم ضاعفها الناشر حين طباعته الكتاب عبر الحرف الكبير وكثرة الفراغات، حتى صار ضخمًا، يقذف في قلب القارئ رهبة.

فكان لابد من القيام بعملية تهذيبية وفق طريقتى التى اشتهرت عبر تهذيب «مدارج السالكين» بخاصة، وموزاينى المنهجية فى الانتقاء وإبقاء المعانى أو الحذف، وسميته «غيث الغياثى»؛ تيمنًا بالغيث الماطر المبارك، ثم عدلت عنه إلى اسم «الفقه اللاهب» لمطابقة هذا الوصف ما هنالك، واستعرت هذا العنوان من كلام الجوينى نفسه، فقد وصف نفسه فى المقدمة أنه ينفث لهيب الفكر، ثم إنّى قصدت أن يكون هذا التهذيب حلقة مميزة ضمن سلسلة تهذيب عيون المدونات الإيمانية والفقهية، رديفة معاضدة لسلسلة إحياء فقه الدعوة، تكملها وتسد نقصها وتظاهرها فى التوعية وبناء العقول وتزكية النفوس.

وليست هذه الطريقة التهذيبية سهلة كما يظن المتعجل، وإنما هى مُكنة مستندة إلى ذخيرة تجريبية تربوية، وسليقة يودعها الله فى فطرة بعض عباده، وفن تسيطر عليه ذوقيات وفراسات خفية، ثم هى مدرسة لها معاييرها ومقاصدها وأساليبها، والمأمول أن يحتفى الدعاة بهذه التهذيبات احتفالهم بما هو من إنشاء مفكرى الدعوة، سواء بسواء؛ لأن منهجية التربية الدعوية -فى شطر منها- قائمة على هذا المعنى، وتستند إلى مقالات السلف الصالح ورؤاهم، وكان من اللازم تجديد عرضها، وابتكار مناورات تهذيبية، تميل بالأنماط التأليفية القديمة نحو التجانس مع لغة العصر، ومراعاة الذوق المعرفى الحاضر، ثم الحاجة الدعوية بخاصة.

لذلك جاء عملى فى هذا التهذيب متنوعًا، وتدخلى واسع التغيير.

فالكلام، فى المقدمة التى كتبها المحقق الأستاذ عبد العظيم الديب، كلام طويل جدًّا، يقع فى ١٨٤ صفحة، وفيه إطناب ووصف لنسخ الكتاب المخطوطة وتفصيل حول حياة الجوينى ، فضغطت الكلام الذى فيها ضغطًا، واكتفيت بالضرورى الذى لابد منه.

وأصل الكتاب فيه تكرار وإطناب وسجع خرج عن الحد المستساغ أحيانًا، فحذفت ذلك، أو اختصرته، وفيه مدح الجوينى لنفسه ولكتابه، اختصرته، وانتقاد للماوردى وأحكامه السلطانية، بلغ حد القسوة، فحذفته، وإسراف فى مدح الوزير

نظام الملك، وله حق فى هذا الإسراف؛ لرفيع شأن هذا الوزير الثقة العالم المجاهد، لكنى اختصرته.

كذلك وجدت إشارات فقهية خارجة عن موضوع الكتاب، واستعمالًا لمفردات من اللغة مهجورة الآن، صعبة الفهم، واستدعت شرحًا من المحقق لها، فحذفت ما كان من ذلك.

ثم إن مجرد حذف هوامش المحقق التى أكثرها من باب المقابلة بين كلمات النسخ المخطوطة – قد هبط حجم الكتاب إلى النصف تقريبًا.

واختار الناشر عند الطباعة حرفًا كبير الحجم، وفراغات بين الكلمات وبين السطور واسعة، فهبط الحرف الصغير الذى اخترته وتقليص الفراغات بالحجم إلى النصف ثانية من غير مبالغة فى تصغير الحرف.

وهكذا أصبح الكتاب بضغط المقدمة وإلغاء هوامش المحقق فى المقابلة بين مخطوطات الكتاب، وبحذف بعض السجع والإطناب والمعانى الثانوية، وبتصغير الحرف وتقليص الفراغ – فى حجم مناسب، لا يزيد على خمس المجلد الأصلى الذى ظهر به، مما يجعل مطالعة طلاب العلم الشرعى ودعاة الإسلام أيسر، وفهم موضوعه عليهم أسهل، مع ما هو أبعد من ذلك من ترويج الكتاب وجعله مصدرًا للعامة بعد أن كان من مقتنيات الخاصة، لضخامته، ولندرته، وخلو الأسواق منه؛ لأن أكثر النسخ التى طبعت وزعتها دائرة الشئون الدينية بدولة قطر مجانًا قبل عشرين سنة، مما حرم الكثيرين من الوصول إليه، وربما كانوا أبعد همة فى طلب العلم الشرعى ممن أهدى لهم، فوق ما فى عملنا من إتاحة رخص الثمن الذى يشترى به الكتاب، لصغر حجمه مهذبًا، مما أوصله إلى أيادى شباب الإسلام فى الأقطار الفقيرة، ثُمَّ ما هناك من احتمالات ترجمته إلى اللغات الأخرى بعد تجويد الكتاب بالتهذيب، مما يجعل النفع متعديًا، ودائرة الرواج مضاعفة.

إن «الغياثى» قطعة رصينة من العمل الاستنباطى والقياسى، سرعان ما يكتشف صاحب الخلفية الشرعية الوافية أهميته الاستثنائية، فيبدى حفاوة به من تلقاء نفسه

دون حاجة لوصية وحثّ، كما أن هذه المدونة هي أصل وجذر الفكر الدعوى والإفتاء السياسى المعاصر، وقد جمعت حاجات الدعوة من أقطارها، ومنحتها تعليلًا واضحًا، مع الثقة والاعتقاد اليقينى بصواب ما هنالك، حتى دقّ الجوينى مرارًا على صدره يضمن عهدة اجتهاداته الجريئة اللاهبة، وكأنه صار بذلك مؤسس مدرسة الاجتهاد السياسى الحر، وانتصبت إفتاءاته الصريحة تغرى الشاطبى وابن تيمية وابن القيم فيما بعد - أن يتابعوه، فهو الرائد، وهم المقتفون.

والجوينى إنما يدير أمر الولايات العامة والإمامة على «الكفاية»، ويستعمل اصطلاح «خلو الزمان عن الأئمة»، ولا يعنى به عدم وجود حاكم مسيطر؛ فإن وجوده ظاهرة إنسانية عامة، وإنما يعنى حالة من ثلاث:

* أن يكون الإمام غير مكافئ، بادى الضعف، قليل الخبرة.

* أو يكون من أهل الكفاية، لكنّ نفوذه يقتصر على بعض الأمة وفى ناحية منها فقط.

* أو يكون الإمام فاسقًا، ما هو بأهل، ولم تحصل له بيعة، وإنما استولى بالقوة.

وباستحضار القارئ لهذه المعانى لاصطلاحه يستطيع أن يفهم مقاصد الجوينى على وجهها.

ثم إنه يرى لوم العامة أيضًا والتحريج عليهم كذلك، ويعيبهم فى مواطن كثيرة - أنهم يتهيبون فى مواطن الإقدام، ولا ينهون عن منكر.

ومما يعين قارئ «الغياثى» على فهمه بصورة صحيحة، وفهم حماسة الجوينى خلاله - أن يتذكر أن هذا المذهب السياسى التغييرى إنما جاء بعد دهر من معاناة الأمة وفقهائها من أسواء وبدع وظلم الحكم البويهى المنحرف وتحالفه مع الدولة الفاطمية بمصر التى تشاكله فى السوء.

فدونك أخى الداعية هذه الاجتهادات الجوينية واللمعات الفقهية، واغترفْ علمًا عطرًا قريب المنال، وتأملْ طائفة من المحاكمات الأصولية، هى من آيات الجمال - يتوسع وعيك، ويجزل همك.

ثم ادع للجويني؛ لإمامته وإبداعه وصراحته في الحق.

* وتلزم الإشارة إلى أمرين:

١- أني أبقيت بعض حواشي المحقق الدكتور عبد العظيم الديب لأهميتها؛ ولأن النص لا يفهم -ربما- بدونها.

ثم أضفت تعقيبات أخرى تزيد قول الجويني وضوحًا، وحيثما لم أنسب التعقيب لنفسي فمعنى ذلك أنه للأستاذ المحقق.

٢- وأن المقدار الذي أبقيت عليه من الكتاب يتخلله حذف كثير، فلم يطرأ الحذف على الفقرات فقط، بل حتى داخل الفقرة، ربما أحذف كلمات أو جملًا، وعلى ذلك فلا يصلح هذا التهذيب لاستلال أقوال منه من قبل الباحثين ونسبتها إلى الجويني، بل يجب رجوع الباحث إلى الأصل الكامل للغياثي.

* وأدعوك أخيرًا أن تشكر معي المحقق الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب، وادع له؛ فإنه كان بارعًا، وبذل جهدًا عظيمًا، وأنا آمل أن يتأول لي صنيعي؛ إذ لم أستأذنه، وأن يتفهم موازيني الدعوية التربوية والسياسية فيما أثبتُّ ومحوتُ، لا الموازين العلمية الصرفة؛ إذ إني لم أصنع مختصرًا لـ«الغياثي»، وإنما انتقيت منه المعاني الكاشفة عن جذور الفكر الدعوي المعاصر، فهو تهذيب للكتاب بميزان دَعَوِيٍّ، وما بمختصر.

واجعل لي في دعائك سهمًا.

وفقك الله للصالحات.

محمد أحمد الراشد

مختارات بتصرف من مقدمة المحقق

الأستاذ عبد العظيم الديب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وبعد:

لقد توثقت صلتى بإمام الحرمين رضي الله عنه، وصارت هذه الصلة محبةً وتآلفًا، منذ أصغيت إليه أسمع منه كتابه «البرهان فى أصول الفقه»، وقد عايشته فى نيسابور حيث نشأ، ورافقته إلى مجالس شيوخه، ثم رأيته يصول ويجول فى مجالس المناظرة، يقمع دعاة الفتنة، ويكشف شبهات الزائغين، ثم رأيت كيف اصطلى بنار المحنة وحرّها، فصبر وصابر.

وكان ثمرة المرحلة الأولى من هذه الرحلة الطويلة:

١ - دراسة بعنوان: «إمام الحرمين: حياته وآثاره».

٢ - تحقيق كتاب: «البرهان فى أصول الفقه».

ثم عدت لإمام الحرمين فى المرحلة الثانية، وصرت مصيخًا مؤلفاته كلها، وبخاصة موسوعته الفقهية الجبارة «نهاية المطلب فى دراية المذهب»؛ محاولًا بذلك أن أصل إلى خصائص فقهه، فكان من ثمرة ذلك: البحث الذى قدمته أطروحة للدكتوراه بعنوان «فقه إمام الحرمين»، وقد نال تقدير مرتبة الشرف الأولى، وكان مما وصلت إليه من نتائج أن هناك كثيرًا من القضايا والمسلمات البديهية فى حياتنا الثقافية ومعلوماتنا تحتاج إلى تصحيح. فمن ذلك: النظر إلى إمام الحرمين بصفته متكلمًا بالدرجة الأولى، وأن علم الكلام هو علمه الأول.

لكن آثاره ومؤلفاته فى الأصول والفقه أضعاف مؤلفاته فى علم الكلام، و«الغياثى» من أهم هذه الكتب وأخطرها، إن لم يكن أهمها.

بيئته

هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الطائى السِّنبسِى، شغل ﷺ من الزمان تسعًا وخمسين سنة، من سِنِىِّ القرن الخامس الهجرى ٤١٩ - ٤٧٨ هـ.

ومع أن هذا القرن الخامس الهجرى يمثل قمة التمزق الذى وصلت إليه الدولة الإسلامية، وتفرقها إلى دويلات فى المشرق والمغرب، إلا أنه كان من أخصب فترات الحصاد للنهضة العلمية الرائعة؛ فقد كانت كل دويلة تحرص على أن يكون لها مدارسها وعلماؤها وأدباؤها وشعراؤها، استكمالًا لأبهة الملك ومظاهره، وكانت منطقة خراسان من أخصب المناطق إنجابًا للعلماء والأئمة.

وكانت نيسابور، التى نشأ بها إمام الحرمين، من أزهى مدن خراسان، وكانت المجتمعات تموج ببقايا من عقائد بائدة: فارسية، وهندية، ويونانية. وكانت هذه العقائد تتخفى وراء فلسفات ومذاهب وطوائف وفرق، ولا يهدأ للصراع والجدل بينها أوار، فى بيئة علم وحضارة وفكر متوثب، وآراء متدافعة متنافسة، مما كان حريًا أن يؤثر فى شخصية إمام الحرمين، ويزيد من احتداد قريحته، واشتعال ذكائه، وتوقد ذهنه.

ونجد أن والده كان إمام عصره فى نيسابور، تفقه على أبى الطيب سهل بن محمد الصعلوكى، وأبى بكر القفال، وأبى عبد الرحمن السلمى، وشَرَحَ كتابَ المزنى، و«الرسالة» للشافعى، وله تفسير كبير، ومات بنيسابور سنة ٤٣٨هـ، وكان ورعًا، صاحب جِد ووقار.

وقد كانت صفات إمام الحرمين عالية، وحباه الله بالأخلاق السامية، فمن تواضعه العلمى أنه نقل أشياء عن تلميذه عبد الرحيم بن الإمام أبى القاسم القشيرى.

كما كان حر الرأى، لا يقلد أحدًا، ففى «تبيين كذب المفترى» لابن عساكر أنه رفض أن يقلد والده وأصحابه، وأخذ فى التحقيق.

وفى «شذرات الذهب» لابن العماد أنه قال فى اعتراض على والده: «وهذه زلة من الشيخ رحمه الله».

وكان يتمتع بذاكرة نادرة، ففى «وفيات الأعيان» لابن خلكان أنه كان يذكر دروسًا يقع كل منها فى عدة أوراق، ولا يتلعثم فى كلمة.

كما تميز رحمه الله بصبر ودأب نادرين فى طلب العلم والبحث، وكان يقول -كما فى «تبيين كذب المفترى» - : «أنا لا أنام ولا آكل عادةً، وإنما أنام إذا غلبنى النوم ليلًا كان أو نهارًا، وآكل إذا اشتهيت الطعام».

وكذلك رزقه الله رقة القلب وخشوعه، قالوا: «ومن رقة قلبه أنه كان يبكى إذا سمع بيتًا أو تفكر فى نفسه ساعة»، ويصور السبكى فى طبقات الشافعية هذا قائلًا: «وإذا وعظ ألبس الأنفس من الخشية ثوبًا جديدًا، ونادته القلوب:

إننـــا بشـــــر، فأسجِـــح فلسنـا بالجبـال ولا الحديـدا».

* أما شيوخه، فإنه سمع أول ما سمع من أبيه الإمام أبى محمد، وقد أخذ الأصول عن أبى القاسم الإسكاف الإسفراييني، وسمع الحديث من أبى بكر الأصبهانى، والنَضْرَوى، وأبى حسّان المزكّى، والجوهرى، وأجاز له الحافظ أبو نعيم الأصبهانى صاحب الحلية، كما أخذ القراءات عن الخبّازى، والنحو والأدب عن أبى الحسن المجاشعى.

وقد رحل إلى أصبهان وبغداد وغيرهما آخذًا؛ عمن فيها من الشيوخ، ثم إلى الحجاز، وجاور بمكة أربع سنين ؛ يدَّرس ويفتى، ويجمع طرق المذهب، ويقبل على التحصيل -كما قال ابن عساكر- . وذكر ابن خلكان أنه جاور أيضًا بالمدينة، ومن هنا جاءه لقبه الذى عرف به: «إمام الحرمين»، وكانت سنه إذ ذاك تقرب من الأربعين.

وقد خلف إمام الحرمين مصنفات كثيرة فى معارف متنوعة، شملت الكلام وأصول الفقه، والخلاف والجدل، والفقه والتفسير والخطب والمواعظ والوصايا، وقد أربت هذه المؤلفات على الأربعين، منها:

* فى علم أصول الفقه: البرهان، الورقات، التحفة.

* فى الفقه: نهاية المطلب، مختصر النهاية.

* فى علم الكلام: الإرشاد، الشامل، العقيدة النظامية.

* فى علم الخلاف والجدل: الكافية.

وظل مجاهدًا رضي الله عنه فى دين الله، ناصرًا سنة نبيه ﷺ، حتى أدركه قضاء الله سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ودفن بنيسابور.

تعريف بالغياثى

«الغياثى» اسم الشهرة لهذا الكتاب، أما الاسم الكامل كما سماه المؤلف «غياث الأمم فى التياث الظلم»، والغياثى: نسبة إلى غياث الدولة، الذى هو نظام الملك.

وقد أكد نسبة هذا الكتاب إلى إمام الحرمين أكثر من عشرة مصادر، مثل: «سير أعلام النبلاء» للذهبى، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«شذرات الذهب» لابن العماد، وغيرها، فوق أن إمام الحرمين نفسه ذكره فى كتابه «البرهان».

ويعتبر «الغياثى» من أواخر مؤلفات إمام الحرمين، فقد ورد فيه ذكر لموقعة «ملاذكرد» التى كانت بين ألب أرسلان، وإمبراطور الروم فى سنة ٤٦٣هـ.

ولعلنا بهذا نستطيع أن نقول: إن هذا الكتاب من أكثر كتب إمام الحرمين تمثيلًا لآرائه وأفكاره؛ حيث حمل إلينا آخر ما استقر عليه نظره، واطمأن إليه فكره، وهداه إليه بصره.

موضوع الكتاب وخطته

هذا الكتاب ألفه إمام الحرمين لغياث الدولة، نظام الملك، الحسن بن على الطوسى، الوزير العادل، صاحب المدارس التى عرفت باسمه «النظامية»، وأحد الزهاد العبّاد المعروفين، وناصر السنة وأهلها، وحامى الفقهاء من بطش المبتدعة والزنادقة، وأحد فقهاء الشافعية، وقد تولى الوزارة للسلطان السلجوقى «ألب أرسلان»، ثم من بعده لابنه «ملكشاه»، ولد سنة ٤٠٨ هـ، وتوفى سنة ٤٨٥هـ كما فى «طبقات الشافعية».

إن إمام الحرمين لم يقتصر فى «الغياثى» على بيان أحكام الإمامة؛ بل أعلن أنها ليست مقصودة؛ وإنما هى مقدمة ووُصلة ووسيلة إلى الحديث عن غيرها؛ إذ الحديث عن الإمامة فى حكم التوطئة والبداية -كما يقول- ، وإنما المقصود توضيح مرتَبط قضايا الولاية، إذا خلا الزمان عن الولاة والأئمة، أو وجد المسلمون إمامًا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود.

وسيتضح من سياق الكتاب أنه كان يغرى نظام الملك بالاستيلاء على الحكم، وعزل الخليفة الضعيف الذى كان آنذاك، ووصفه بهذه الصفات، ولذلك تكلم عن «الحكم إذا استولى على منصب الإمامة مستولٍ بشوكةٍ وصَوْلٍ»؛ حيث صرح بأن نظام الملك هو الكافى ذو النجدة المتوحد المتفرد بهذه الصفة.

منهجه فى الكتاب

* من السمات الواضحة فى منهج إمام الحرمين فى كتابه هذا «الغياثى»: الإجمال بعد التفصيل؛ فتراه بعد أن يفصل ويوضح ويوفى البيان والشرح حقه - يعود فيجمل ما فصّله؛ ليكون ذلك أدعى للبقاء فى الذهن.

* وأحيانًا يجمل ثم يفصل.

* لكن من أهم أركان منهجه: التفرقة بين المقطوع والمظنون؛ فإن إمام الحرمين يدرك أن منشأ الاختلاف فى الرأى، والزلل والخطأ فى الفكر: هو الخلط بين المقطوع والمظنون؛ كأنه يريد رحمه الله أن يبدأ - فى كل قضية يعرضها - بالاتفاق على المسلّمات القطعيات، وتمييزها عما عداها من المسائل المحتملات، التى تقع فى مجال الظن والاجتهاد، فإذا تم الاتفاق على المقطوع المسلم به - كان ذلك أساسًا صالحًا للبحث والمناقشة، فإذا كان هناك اختلاف فى قضايا ومسائل وراء ذلك فلتكن على وعىٍ بأنها من المحتملات المظنونات، وهذه فى الواقع هى الموضوعية الكاملة، والأسلوب العلمى الأمثل فى البحث والمناقشة.

والقواطع الشرعية ثلاثة:

* نص من كتاب الله تعالى لا يتطرق إليه التأويل.

* وخبر متواتر عن الرسول ﷺ لا يعارض إمكان الزلل روايته ونقله، ولا تقابل الاحتمالات متنه وأصله.

* وإجماع منعقد.

قال: «ولا مطمع في وجدان نص من كتاب الله تعالى في تفاصيل الإمامة، والخبر المتواتر معْوزٌ أيضًا، فآل مآل الطلب في تصحيح المذهب إلى الإجماع، فكل مقتضى ألفيناه معتضدًا بإجماع السابقين - فهو مقطوع به، وكل ما لم يصادف إجماعًا - اعتقدناه واقعةً من أحكام الشرع، وعرضناه على مسالك الظنون عَرْضَنا سائر الوقائع».

وبعد أن وضع هذا الأساس، لم يغب عن باله لحظة؛ فطول رحلتنا معه في الكتاب نجده ينبه عليه ويلجأ إليه؛ ولذلك انتقد الماوردي، واتهمه بأنه: «لم يتميز له المظنون عن المعلوم، والتبست عليه مسالك الظنون بمدارك العلوم»، و«سياقه المظنون والمعلوم على مزاج واحد».

* ومن منهجه: الاقتصار على الجديد، وعدم حكاية أقوال السابقين، فلم يدون في كتابه إلا الجديد الذي لم يسبق إليه، ولم يُزْحَمْ عليه، فإذا كان لابد من أقوال السابقين - كان عرضها في معرض التذرع إلى موضوعه، وفي إيجاز.

وقد ثار على الذين يضمنون كتبهم كلام السابقين، فقال: «ولم نضع كتابنا هذا لمثل ذلك؛ فإن تصنيف الماضين، وتأليف المنقرضين مشحون بهذه الفنون، ومعظم المتلقبين بالتصنيف في هذا الزمان السخيف يكتفون بتبويب أبواب، وترتيب كتاب، متضمنة كلام من مضى، وعلوم من تصرَّم و انقضى».

* هذا وقد خلا الكتاب من الاستطراد تمامًا، فتقسيمه المحكم، وتبويبه المنظم، وتفريعه الدقيق - لم يدع مجالًا للاستطراد، حاشا موضوع الإجماع، فقد استطرد إليه إمام الحرمين، وأفاض فيه وأطنب.

* ثم نرى جمال الأسلوب، وطلاوة العبارة؛ إذ جمع إمام الحرمين في هذا الكتاب بين دقة العالم وحرارة الداعية، وذلك في نصاعة عبارة، وروعة أسلوب، ودقة أفكار.

فحين تفيض حماسته، يهدر كالشلال المتحدر، في قوة مرعدة مزبدة، والكتاب كله ينطق بما قلنا، ويشهد بما ذكرنا.

وحين يأخذ فى إيضاح المسائل، وتقعيد القواعد، وتقديم الأدلة لإقناع كل معترض أو سائل - تراه يلتزم بالأسلوب الهادئ الرصين مع فصاحة فى اللفظ، وبلاغة فى العبارة، وحلاوة فى الأسلوب.

وهو لا يخالف بين الموطنين، ولا يراوح بين الأسلوبين عفو الخاطر، أو كيفما اتفق؛ بل يفعل ذلك عن عمدٍ وقصد ووعى وإدراك لمكان كل من الأسلوبين.

ولعل هذا يفسر لنا ما نراه فى الكتاب من مزاوجة بين الأسلوبين: الأسلوب العلمى الرصين، والأسلوب الأدبى الجميل.

أثره فى من بعده

وأول من حمل أفكار إمام الحرمين هو تلميذه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى؛ فقد كان الغزالى أحد الثلاثة النجباء من تلاميذ إمام الحرمين، وكان يسعد بهم، ويدربهم على المناظرة والجدل، وهم: الغزالى، والكيا الهراسى، والخوافى.

وقد أذن الله أن تشيع مؤلفات الغزالى، وتشرِّق وتغرِّب، فمنذ أكثر من مائة سنة بدئ فى طبع كتب الغزالى، ووصل عدد المطبوع منها نحو خمسين كتابًا، وتبع نشر كتبه إذاعة علمه، وإشاعة فكره، حتى كان محل دراسة من أكثر من جانب، على حين ظلت مؤلفات إمام الحرمين حبيسة، لم تر النور إلا بعضًا منها، وكان ذلك قريبًا.

ففيما نعلم: لم يطبع من كتب إمام الحرمين إلا «الورقات»، ثم أخيرًا جزء من «النظامى» باسم «العقيدة النظامية» ثم «الإرشاد» ثم «لمع الأدلة» ثم جزء من «الشامل» ثم «البرهان». ويوم يتاح لكتب إمام الحرمين أن ترى النور، وتدرس آراؤه وأفكاره ويذيع علمه، يومها سنرى إلى أى حد استقى الغزالى وغيره من معين إمام الحرمين.

وكتاب «الغياثى» نرى أثره فى الغزالى واضحًا، وبخاصة فى «فضائح الباطنية».

ويعرض الشاطبى لمسألة أخذ الحاكم من أموال المسلمين لتجهيز الجنود وسد الثغور، ويفصلها فى كتابه: «الاعتصام» (٢/ ١٢١).

والمسألة فى واقع الأمر من مسائل إمام الحرمين التى كان أول من أفتى فيها، كما أكد ذلك بنفسه، وكما نفهم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عنها فى «رسالة المظالم المشتركة». ومن يقرأ المسألة فى «الغياثى»، يقطع بأن كلام الشاطبى من ذلك الينبوع، وأن الألفاظ والعبارات تكاد تتطابق.

والذى يلفت النظر أن الشاطبى جعل مَرْجِعَه فى المسألة الغَزَّالِىَّ، فقال: «والمسألة نصّ عليها الغزالى فى مواضع من كتبه، وتلاه فى تصحيحها ابن العربى فى «أحكام القرآن» له».

والذى يعنينا أن شيوع ذكر الغزالى رضي الله عنه وذيوع مؤلفاته - جعل كثيرًا من آراء إمام الحرمين تنسب إليه.

ومن ذلك قول الشاطبى: «إن الإمام لو أراد أن يعاقب بأخذ المال على بعض الجنايات، فاختلف العلماء فى ذلك، حسبما ذكره الغزالى». والمسألة فى واقع الأمر ليست للغزالى، وإنما هى لإمام الحرمين، وقد قتلها بحثًا فى «الغياثى» فى مسائل أخرى.

وفى «المستصفى» للغزالى متابعات لإمام الحرمين، وكذلك النووى؛ إذ يكفى أن تقرأ «المجموع» للنووى رضي الله عنه ليطالعك فى أكثر صفحاته قوله: «قال الإمام»، ويعنى به: إمام الحرمين، فحيث ذلك الإمام مطلقًا بدون قيد فهو عنده: إمام الحرمين.

ومن يطالع «السياسة الشرعية» و«الحسبة» لشيخ الإسلام ابن تيمية - لا يخطئ نظره فكر إمام الحرمين بصفة عامة. على سبيل المثال: رأيه فى أن وجوب الإمامة بالشرع لا بالعقل، وأن الإمامة تنعقد بأهل الشوكة والمنعة، وأن واجب الإمام هو إقامة الدين، والدنيا ترعى؛ لأن بقيامها قيام الدين.

وتستطيع تتبع أفكار وآراء إمام الحرمين، فتجدها عند الآمدى، والعز بن عبد السلام، والسبكى، والنووى، وغيرهم.

وما زالت كتب إمام الحرمين وآراؤه وأفكاره فى حاجة إلى جهود متضافرة لنشرها ودراستها.

كلمة فى التحقيق

دفعنى إلى هذه الكلمة، أمور: منها بيان قيمة التحقيق وخطورته وضرورته لإحياء تراث أمتنا من الهوان، فبهذا الإحياء تحمى أمتنا حاضرها من الضياع، ومستقبلها من التلاشى، ثم بيان ما يتطلبه هذا العمل من تبتل وتجرّد، ففى ذلك شىء من العزاء للمصابرين الصابرين على مشقات هذا الفن ومضائقه، ثم تنبيه لأولئك العابثين بتراث أمتهم، الذين يدخلون ميدان التحقيق بغير سلاحه، علهم يبحثون لأنفسهم عن مجال آخر احترامًا لتراث أمتهم.

* التحقيق: هو العمل على إظهار نص الكتاب المخطوط على الصورة التى أرادها مؤلفه عليها، أو أقرب صورة إليها، وهذا بعد تحقيق اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، ونسبة الكتاب إلى المؤلف.

وليس هذا بالعمل الهيّن، فكم من الصعوبات تكتنفه: من اختلاف الخط والإملاء، وعدم وضوحه وتآكله، وكثرة السقط والخرم، ثم اختلاف الأسلوب: لفظًا وتعبيرًا، وفكرةً وبناءً، ناهيك بالتصحيف والتحريف الذى لا يعرى من كاتب ولا ناسخ.

ومنذ القدم أدرك الجاحظ أن التحقيق أشق وأصعب من التأليف.

قال فى كتابه «الحيوان»: «ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفًا أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاءُ ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعانى أيسرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام».

ويقول أستاذنا المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون: «إن تحقيق النصوص محتاج إلى مصابرة ويقظة علمية، وسخاء فى الجهد الذى لا يضن على الكلمة الواحدة بيوم واحدٍ أو أيام معدودات».

ولا شك أن صعوبة هذا الفن «التحقيق» هى التى أخّرت عنايتنا به، والتفاتنا إليه، حتى ظن البعض أنه فن غربى، تعلمناه من المستشرقين، وأخذناه عنهم مع «أننا

ذوو عهد قديم بهذه الدقة فى المنهجية، فى الرواية والأداء، وكان علماء الحديث عندنا أول من وضعوا أصول هذا المنهج، وضبطوا قواعده، وعنهم أخذها جامعو اللغة، ورواة الشعر والأخبار، قبل أن تسمع الدنيا بكلمة الاستشراق» كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ.

وتقدم إلى هذا الميدان رواد أفذاذ يزهو بهم ميدان التحقيق، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: العلامة أحمد تيمور باشا، وأحمد زكى باشا، ومحمد محمود الشنقيطى، ومحب الدين الخطيب، طيّب الله ثراهم.

وتبعهم فى جيل تالٍ أستاذنا العلامة محمود شاكر، شيخ العربية، مد الله فى عمره، وأستاذنا عبد السلام هارون، ومصطفى السقا، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وإبراهيم الإبيارى، وبنت الشاطئ، وسيد صقر.

ومن الجيل الذى يليهم، جيل الشباب: الأخ الدكتور محمود الطناحى، والدكتور عبد الفتاح الحلو.

ولكن مثل كل الميادين، ما إن يرتاده المرتادون، ويعبّدون الطريق إليه - حتى يسارع إليه بعض من غير أهله؛ بحثًا عن مكان بين هذه الأسماء، أو مالٍ، أو شهرةٍ، ولا يدرون أنهم يسيئون إلى تراث أمتهم قبل أن يسيئوا إلى أنفسهم.

إن العامل بالتراث إن لم يستشعر قداسة عمله، ويتعلم من الأسلاف العظام الذين يعايشهم فى كتبهم وعلمهم وفكرهم، إن لم يتعلم منهم التثبت والإخلاص والتجرد - والزهد - فقد ظلم نفسه، وظلم تراث أمته.

ويقوم المنهج الذى نعتمده على الإدراك الكامل لمعنى التحقيق الذى قدمته آنفًا، وأن التحقيق غير الشرح والتعليق، وأن عمل المحقق هو خدمة النص، لا يزيد على ذلك؛ ولذا كان الضبط للغريب والمشتبه فى أضيق الحدود، وبمنتهى الحذر، مع التنبيه على ما كان من ضبط فى المخطوط إذا خالفناه، وكذلك يكون التعليق فى حدود الضرورة القصوى؛ تخفيفًا للغموض؛ أو ربطًا للمعلومات؛ واستطرادًا لأدنى ملابسة، وليس شرحًا للنص وتفسيرًا، وإنما يباح منه القدر الذى يعين على فهم النص

ويزيده توثيقًا. وملاك الأمر: ألا يفرض المحقق فهمه على القراء، ولا على المؤلف.

وقد كان الاعتماد على نسخ للكتاب عديدة، ثلاث منها فى دار الكتب المصرية، وأخرى فى مكتبة بلدية الإسكندرية، وأخرى فى الهند فى مكتبة خدابخش.

وأختم بدعاء إمام الحرمين: اللهم يسّر بجودك وكرمك منهج الصواب، وجنبنى غوائل التعمق والإطناب.

الدكتور

عبد العظيم الديب

* * *

مقدمة المؤلف

قال الشيخ الأجل الإمام فخر الإسلام، إمام الحرمين، أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى -رحمة الله عليه-:

الحمد لله القيوم الحيّ، الذى بإرادته كلُّ رشد وغَيٍّ، وبمشيئته كلُّ نَشْر وطيٍّ، كل بيان فى وصف جلاله حصر وعيّ، ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ [الشورى:١١] ؛ فالعقول عن عزّ جلاله معقولة، ومعاقد العقود فى نعت جماله محلولة، وقلوب العارفين على الدَّأَب فى الطلب مجبولة، والأفهام دون حمى العزة مبهورة، والأوهام مقهورة، والفِطَن مزجورة، وليس إلى درك حقيقة الحق سبيل، ومدارك الوصول بأغلاق العزِّ موصدة، ومن قنع بالدعوى ضاع زمانه، ومن تحقق فى الإرادة طالت أحزانه، ومن عرفَ الله كَلَّ لسانهُ، جَلَّ جلالُه، وتقدَّسَتْ أسماؤه، العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه، غَرِقت فى نور سرمديته عقول العقلاء، ولم يحصل منه أهل الأرض والسماء إلا على الصفات والأسماء، فالخَلْقُ رسومٌ خالية، وجسوم بالية، والقدرة الأزلية لها والية، جلت ساحة الربوبية عن وهم كلِّ جنّيٍّ وإنْسيٍّ.

قد أفلح الحامدون، وخاب الجاحدون، وفاز المؤمنون، وكُفِيَ المتوكلون، وصدق المرسلون، واعتَرَفَ لله بالوحدانية المؤيَّدون، وأيقن بنبوة المرسلين، وصدق خاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين- الموفقون [١] . صلى الله عليه وعلى الأنبياء أجمعين.

قد تقدم الكتاب «النظامى» [٢] محتويًا على العجب العجاب، ومنطويًا على لباب الألباب، فوافت الخِلْعةُ تجرُّ على قمة المجرة فضولَ الذيل، وتُبرُّ على نهاية المنى بأوفى

---

(١) فاعل أيقن.

(٢) اسم كتاب لإمام الحرمين، نسبة لنظام الملك، سماه «الرسالة النظامية فى الأركان الإسلامية» ومنه أخذ الجزء الخاص بالعقائد، وسمى «العقيدة النظامية» وهو الجزء الموجود من «النظامى» دون باقى الكتاب الذى شمل الأركان الإسلامية كلها ولم نعثر عليه إلى الآن.

الكيل، ولو لم أجد أمْرَ الله عباده بالشكر على نعمه التى لا تعد ولا تحد - أسوةً ومقتدًى - لقلت: مَنْ شكرَ أدنى منحِ مولانا، فقد ظلم واعتدى، ولكن لا معاب على من اتخذ كتابَ اللهِ قدوةً ومحتدًى.

وإنّى لغرسٌ أنت قدمًا غرسته

وربيته حتى علا وتمدّدا

لأنك أعلى الناس نفسًا وهمةً

وأقربهم عُرفًا وأبعدهم مدى

وما أنا إلا دوحةٌ قد غرستها

وأسقتيها حتى تمادى بها المدى

فكم باشر أوار الحرب، وأدار رحى الطعن والضرب، فلا يده ارتدت، ولا طلعته البهية ارْبَدَّتْ، قد سَدّت مسالك المهالكَ صوارمُه، وحصّنت الممالك صرائمه[1]، وحلت شكائمَ العِدى عزائمه، وتحصنت المملكة بنَصْلِه، وتحسنت الدنيا بأفضاله وفضله، وغمر ببرّه آفاقَ البلاد، ونفى الغىَّ عنها بالرّشاد، وجَلَّى ظلامَ الظلم عدلُه، وكسر فِقارَ الفقر بذلُه، وكانت خِطة[2] الإسلام شاغرة، وأفواه الخطوب إليها فاغرة، فجمع الله برأيه الثاقبِ شملَها، ووصل بيمن نقيبته حبلَها، وأضحت الرعايا برعايته وادعة، وأعين الحوادث عنها هاجعة، فالدينُ يزهو بتهلل أساريره، وإشراق جبينه، والسيف يفخر فى يمينه، ويرجوه الآيس البائس فى أدراج أنينه، ويركع له تاج شامخ بِعَرْنينه، ويهابه الليث المزمجر فى عَرينه.

فما أجدر هذه السُّدَّة المنيفة بمجموع يجمع أحكام الله تعالى فى الزعامة بين الخاصة والعامة، تتأبد فائدته وعائدته إلى يوم القيامة.

---

(١) جمع صريمة، وهى: إحكام الأمر والعزيمة فيه.

(٢) بكسر الخاء لما يتعلق بالمكان، من دار أو مدينة أو وطن، وبضم الخاء لما يتعلق بالأعمال المنوى فعلها. «الراشد».

ولكلِّ كتاب معمودٌ ومقصودٌ، ومنتحًى مصمودٌ، يجرى مجرى الأساس من البنيان، وها أنا أبوح بمضمون الكتاب وسرِّه، ثم أَنْفُثُ لهيبَ الفكر صاليًا بحَرِّه، وأتبرأ عن حولى وقوَّتى، لائذًا بتأييد الله ونصره.

فأقول: أقسام الأحكام، وتفاصيل الحلال والحرام، فى مباغى الشرع ومقاصده، ومصادره وموارده - يحصرها قسمان، ويحويها فى متضمن هذا المجموع نوعان:

أحدهما: ما يكون ارتباطه وانتياطه بالولاة والأئمة، وذوى الإمرة من قادة الأمة، فيكون منهم المبدأ والمنشأ، ومن الرعايا الارتسام والتتمة.

والثانى: ما يستقل به المكلفون، ويستبد به المأمورون المتصرفون.

وأنا بعون الله وتوفيقه أذكر فى القسم الأول، فى صفة الأئمة والولاة والرعاة والقضاة - أبوابًا منظمة، تجرى من مقصود القسم مجرى المقدمة، على أنى آتى فيها - وإن لم تكن مقصود الكتاب - بالعجائب والآيات، وأشير بالمرامز إلى منتهى الغايات، وأوثر الإيجاز والتقليل، بعد وضوح ما عليه التعويل، ثم أقدّر شغور الحِين عن حماة الدين، وولاة المسلمين، وأوضح إذ ذاك مُرْتَبَطَ قضايا الولاية، وأنهى الكلام منتهى الغاية، فإنه المقصود بالدرَك والدراية، وما نقدمه فى حكم التوطئة والبداية.

ثم أنعطف على القسم الثانى، وهو الذى يستوى فى الاحتياج إليه القاصى والدانى، وأبين أن المستنَد والمعتضد فى الشريعة نَقَلَتُها، والمستقلون بأعبائها وحَمَلَتُها، وهم أهل الاجتهاد الضامّون إلى غايات علوم الشرع شرف التقوى والسداد؛ فهم العماد. فلو شغر الزمان عن الأطواد، فعند ذلك ألتزم شيمة الأناة والاتئاد. فليت شعرى، ما مُعْتَصَمُ العبادِ إذا طما بحر الفسادِ؟، واستبدل الخلق الإفراط والتفريط عن منهج الاقتصاد، وبلى المسلمون بعالم لا يوثق به لفسقه، وبزاهد لا يقتدى به لِخُرْقَه[1]؟، أيبقى بعد ذلك مسلك فى الهدى؟، أم يموج الناس بعضهم فى بعض مهمَلين سُدًى، متهافتين على مَهاوِى الردَى؟، فإلى متى أردِّد من التقديرات فنونًا؟، وأجعل الكائن المستقين مظنونًا؟

(١) أى: حمقه، وفى الحديث: «الرفق يمنٌ، والخُرْقُ شؤمٌ».

عم من الولاة جورها واشتطاطها، وزال تصوّن العلماء واحتياطها، وانسل عن لجام التقوى رؤس الملة وأوساطها، وكثر انتماء القرى إلى الظلم واختلاطها!! ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨]؟

فإن وجدت للدين معتضدًا، وألفيت للإسلام منتصرًا بعد ما درست أعلامه، وآذنت بالانتصار أيامه: كنت كمن يمهد لرحا الحق مقر القطب.

والآن يُفْضِي مساقُ هذا الترتيب إلى تسمية الكتاب والتلقيب.

وقد تحقق للعالمين أن صدر الأيام وموئل الأنام، ومن هو حقا معوّل الإسلام، يدعى بأسماء تُبِرُّ[1] عليها معانيه، ويفوق فحواها معاليه، فهو «غياث الدولة». وهذا إذا تم:

(غِياثُ الأممِ فى التِياثِ الظُلَمِ)

فليشتهر بالغِيَاثِيِّ كما شُهِرَ الأول بالنظامى.

وأركان الكتاب ثلاثة:

أحدها: القول فى الإمامة، وما يليق بها من الأبواب.

والركن الثانى: فى تقدير خلو الزمان عن الأئمة وولاة الأمة.

والركن الثالث: فى تقدير انقراض حملة الشريعة.

والله ولى التأييد والتوفيق، وهو بإسعاف راجيه حقيق.

* * *

(١) أى: تزيد.